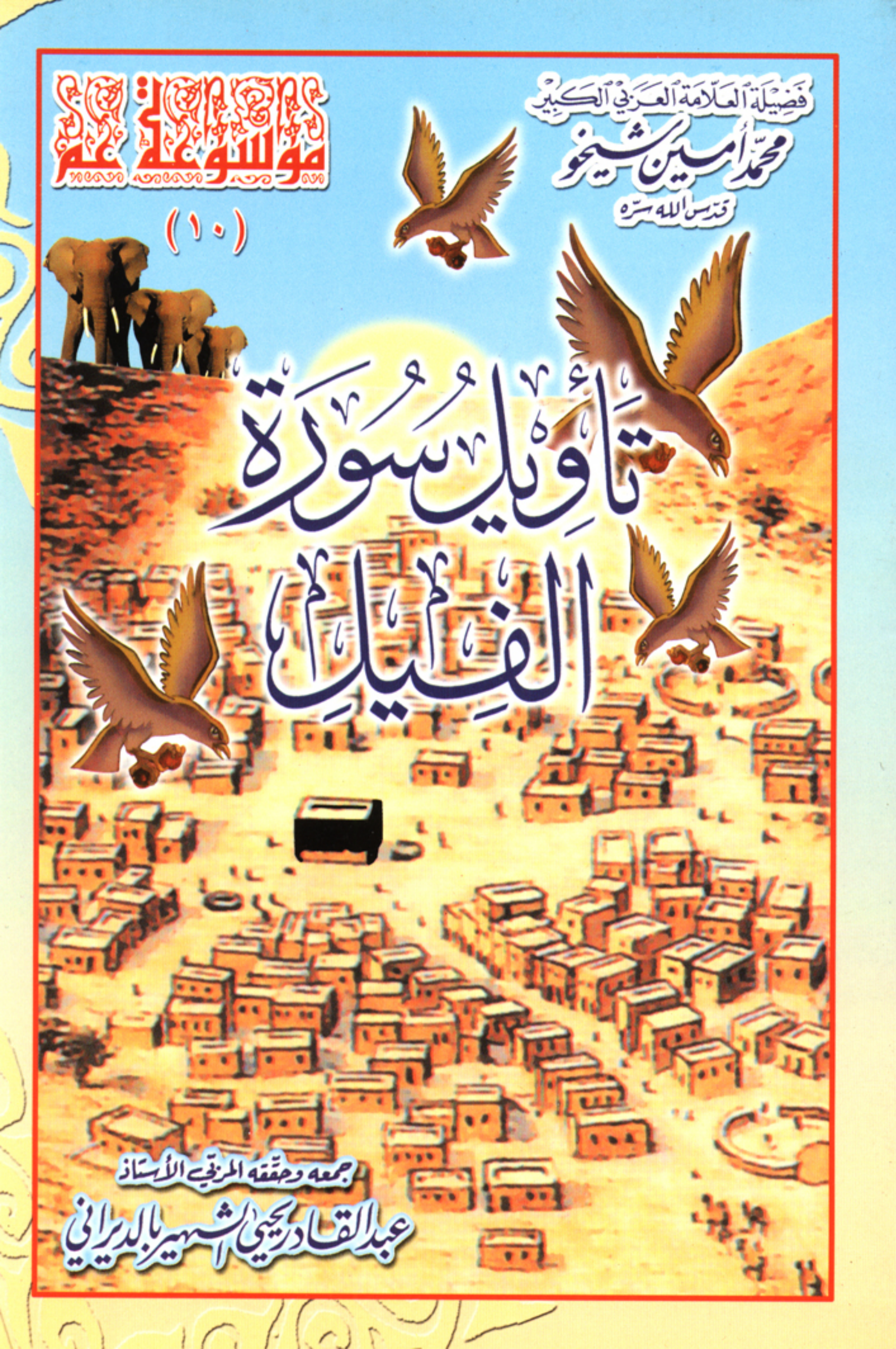


موسوعة عم
(١٠)
فضيلة العلامة العربي الكبير
محمد أمين شيخو
قدس الله سره
تأويل سورة الفيل
جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

تأويل سورة الفيل

موسوعة عم (الجزء ١٠)

Authored by:
The great humane eminent scholar
Mohammad Amin Sheikho
His soul has been sanctified by Al'lah
١٩٦٤-١٨٩٠

فضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

Checked and Introduced by
The Researcher and Thinker
Prof. A. K. John Alias Al-Dayrani

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

Published by
Amin-sheikho.com

§§§§

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

محتويات الكتاب

مقدمة..٣
تأويل سورة الفيل...٥

مقدمة

القرآن كنز عظيم وهبه الله للبشرية، وجعل من رسوله صلى الله عليه وسلم العالي الكريم معلِّماً حسب طلبه وحبه وعظيم اندفاعه صلى الله عليه وسلم لهداية الخلق.. يتلو عليهم صلى الله عليه وسلم آياته ويبيِّن لهم معانيه العالية ليستفيدوا منها ويقتدوا بالسير بأمر الله بها وينتهوا بالتحذير عما نهى جلَّ جلاله عنه في كتابه، فيه وسائل وقاية وقوانين تضمن السلامة وأخرى علاجية تشفي من المرض القلبي بعد الوقوع.

فيا أيها الإنسان المكرَّم عند ربِّك.. ربُّك يحذرك وينذرك لطريق تتقي به وجه الدنيا الفتَّان القاتل.. يرشدك على لسان حبيبه صلى الله عليه وسلم محذِّراً منذراً ما حلَّ بمن سبق ممن لم يسلكوا سبل الهداية وقادهم حب دنياهم للإلحاد في آيات ربهم يريدون تغيير القبلة طمعاً وجشعاً.

لا.. لا.. فلستم معجزين، وإني أمهِلُ رحمةً وحناناً مني بكم ولا أهمل، تعاليتُ عن الإهمال فلقد وسِعَ كرسيِّ السموات والأرضَ وما من ذرَّة في الكون أو مجرَّة إلاَّ وهي تسير بعلمي وبإمدادٍ مني وأنا الرحمن الرحيم بمعاملاتي لكم.

فعودوا لرشدكم والعود أحمد، وفكِّروا قبل أن تصرُّوا على عمل يرديكم بنتائجه دنيا وآخرة، فنفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشَّر.

فها أنا ذا أذكِّركُم بما حلَّ بمن سبق، وإنها ليست قصص أسطورية أوَّلية، بل هي دروس وعبر لكلِّ من اتَّخذ من التفكير صاحباً ومركباً يجوز به مشتهيات نفسه المهلكة، بالحرمان من عالي جناني والقرب من عالي جنابي.. لقد هلكوا لما أصرُّوا على طغيان وفساد في الأرض أرادوه ولم يعجزوا فيها بقوتهم فلقد أَهْلَكْتُهُم بأضعف مخلوقاتي ووسمتهم على الخرطوم فهل دفعت عنهم قُوَّتُهُم وهل خلَّصَهم من كيدي وتدبيري الخَيِّر الحكيم كيدُهم الشرير.

إنَّها دروس وعبر لكلِّ من كان له قلب أو ألقى السمع أو البصر.

{لَقَد أنزَلنَا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ..}[1].

{تِلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَاكَسَبَتْ وَلَكُمْ مَاكَسَبتُمْ ولاَ تُسئلُونَ عمَّا كَانُوا يَعملُونَ}[2].

لكنها وقائع مماثلة فالله تعالى يخلق من الضعف قوة وها هي أفغانستان الضعيفة هدَّت الامبراطورية السوفياتية هداً فتمزقت وأصدرت حكم إعدامها اقتصادياً، فإن لم يكن ردع الطاغية الظالم على يد مؤمنين فسيكون بالعذاب الأليم بزلازل أو بجراد أو فيروسات، وهذه واقعة مشهودة إبَّان إشراق شمس رسول الله صلى الله عليه وسلم بمولده الشريف، حين أرادوا تحويل الدين القويم لدنيا دينة والكعبة التي جعلها تعالى بعيدة عن الدنيا وأكرمنا بروحانية رسوله الكريم ورسله عليهم السلام من خلالها أرادوها لمكاسب اقتصادية وأرادوا تغيير قانون الله إذ: **{جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِياماً للنَّاسِ والشَّهرَ الحَرَامَ..}**[3]: شهر ذي الحجة شهر الحج الأكبر، فصمَّموا على طريق الغواية وهدم طريق الهداية، فعاد عليهم عملهم بأبسط المخلوقات وكانوا عبرة لكلِّ باغٍ وظالم ولعلَّ الظالمين يرجعون؛ وعبرة سامية ودروساً بالغةً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

تقديم المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

تأويل سورة الفيل

من أساليب الكلام الرفيع، والبيان البليغ أن يسوق المتكلِّم قصة ينتزعها من الواقع، لا يريد بها سرداً مُجرَّداً لهذه القصة، ولا تعريفاً بتلك الواقعة، بل إنما يبتغي من ورائها تقريراً لحقائق ثابتة، وغرساً لمبادئ سامية، أو طمأنة لقلوب وجلة، وتثبيتاً لنفوس مؤمنة أو تحذيراً من عواقب وخيمة، وإنذاراً من نتائج مُخزية، إلى غير ذلك من المعاني التي تتراءى للنفس فيها الحقائق جليَّة واضحة حتى إنها لتتخطى القرون والأجيال وتكاد تقف مع الحادثة وجهاً لوجه على الرغم من بُعد الأمد وطول العهد، وإذا بالنفس تجد في هذه القصة الموعظة البليغة المؤثِّرة بأسلوب لطيف وعرض جذَّاب رقيق.

على هذا النهج وبمثل هذا الأسلوب تجد القرآن الكريم في كثير من الأحيان يسوق الموعظة والقصة، وبهذا وردت هذه السورة الكريمة تُحدِّثنا عن قصة أصحاب الفيل.

وخلاصة هذه القصة "أصحاب الفيل" أن أحد ملوك اليمن ابتنى كعبة في حاضرتها صنعاء، ليصرف الناس إليها ويُحوِّلهم عن الكعبة بيت الله الحرام، فجاء أحد العرب وأساء له فيها فأغاظه ذلك وأثار ثائرته، وعزم ليهدمنَّ الكعبة فسيَّر جيشاً في طليعته فيل عظيم ومن ورائه أفيال، وظنَّ أن له فعلاً، وحسب أن له قوة وأن باستطاعته تنفيذ ما صمَّم عليه، ولم يدرِ أنه ليس له من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، فلمَّا أضحى على مقربة من مكة شاءت الرحمة الإلهية أن تُذكِّر أولئك المعتدين بخطئهم فيما اعتزموا عليه، وأن تُوقيهم الهلاك الذي سيصيرون إليه إن لم يرجعوا عمَّا هم فيه من التصميم على العدوان فحوَّل ربُّك الفيل العظيم الذي يتقدَّم في الطليعة وتحوَّلت من بعده الفيَلة مُدبرة، وما كانت لتسلس قيادها لأصحابها وما كانت لتولّي وجهها شطر الكعبة، وأخيراً ومن بعد تذكير مُلِحْ ورغماً عن تذكير أكيد، وبناءً على تصميم المعتدين على العدوان وصممهم عن التحذير الإلهي، أراد ربُّك أن يجعل من هؤلاء

القوم عبرة لكل معتدٍ أثيم، فأرسل تعالى عليهم سرباً من طيور ضعيفة ترميهم بحجارة صغيرة فجعلت من هلاكهم عبرة باقية تُذكِّر كل باغ بمصرعهم، موعظة لا تُنسى على الدهر، وكيف تُنسى وقد جاءت تردِّدُهاً آي الذِّكر الحكيم الذي تعهَّد تعالى بحفظه من كلِّ تحريف وتغيير.

والآن وقد مهَّدنا لما وردت به هذه السورة الكريمة من كلام بليغ نبتدئ بالتأويل فنقول:

لم يُخاطب الله تعالى رسوله الكريم بقوله: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}** إلاَّ ليذكِّره بتلك الواقعة التي جرت منذ عهد قريب فكان لها أثرها البيِّن في أنفس قريش، فلمَّا أراد المعتدون كيداً بالبيت الحرام وبمن يحميه من الناس جعل الله تعالى من هلاك أولئك المعتدين آية بيِّنة وعبرة ناطقة، وعلم الناس إذ ذاك أن الأمور في هذا الكون لا تجري جزافاً، بل جميع ما يقع فيه إنما هو بمقادير ووفق حساب دقيق.

والآن وقد أرادت قُريش أن تكيد للرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه، وقد عزمت أن تُطفئ نور الله، والله مُتمُّ نوره، فلْتستعد للبلاء ولتوطِّن أنفسها للهلاك، ولتعلم أن الذي أهلك أصحاب الفيل مُهلك كُلَّ معتدٍ أثيم، وسيصيب الباغين من المشركين، لا بل كل مُعاند للحق ما أصاب أصحاب الفيل، والله ناصر رسوله ومؤيِّده، والله وحده المتصرِّف في هذا الكون والعاقبة للمتَّقين.

هذه الآية الكريمة تقول: لا تُبالِ أيها الرسول الكريم بخصومك مهما كادوا لك ومهما تآمروا ولا تكُ في ضيق مما يمكرون، فما هم بمستطيعين أن يردُّوا ما جئت به من الحق، أو يحولوا دون نشر ما أنزله الله من الكتاب عليك، فمهما يكن خصمك قوياً فالله سبحانه هو القوي ومنه تعالى يَستمدُّ القوة كل قوي، ومهما يكن لمعارضيك من كيد ومكر وتدبير، فالله هو السميع العليم وما يمكرون إلاَّ بأنفسهم وما يشعرون، وإني لمؤيِّدك وناصرك وإني من ورائهم مُحيط.

ألم تر ما حلَّ بأولئك المعتدين يوم جاؤوا معتمدين على قوَّتهم والهلاك الذي صاروا إليه؟.

ألم تعلم أني أنا الفعَّال وأني أنا المتصرِّف بهذا الكون لا إله غيري وأني على كل شيء قدير: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}.**

فإذا كان المخاطب الأول بهذا الكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا شك أن فيها إشارة وخطاباً ضمنياً لكل مؤمن وتثبيتاً لكل داعٍ إلى الحق ومُرشد.

ففيها من التثبيت على الحق والتشجيع على المضي في الدعوة ما يجعل الداعي يسير قدماً غير مُبالٍ.

وفيها من التعريف بالتسيير الإلهي ما يجعل المؤمن يتذكَّر دوماً أن المتصرِّف الحقيقي في الكون هو الله وحده، وما على الإنسان إلاَّ أن يصلح نيته والله آخذ بيده وناصره.

وهكذا ففي هذه الآية الكريمة تشجيع للمؤمنين على الصبر في نشر الحق، وطمأنة لهم وتثبيت، وفيها إنذار للمعارضين في كل عصر وحين، وتوقية لهم من الهلاك وتحذير، وفيها بيان بأن الأمور في هذا الكون لا تجري جزافاً، فالله وحده هو المتصرّف والمسيِّر وهو الله لا إله إلاَّ هو، وهو العزيز الحكيم، وما ذلك كله إلاَّ طرف ممّا تضمَّنته هذه الآية الكريمة واشتملت عليه.

هذا وبعد أن بيَّنت لنا سورة قريش نظام هذا الكون البديع، وما فيه من إيلاف وتناسق وتنظيم، بعد أن عرَّفتنا بخالقنا العظيم، وبأنه تعالى بنا رؤوف رحيم: جاءت هذه السورة تُحذِّرنا من مخالفته تعالى، وتبيِّن لنا أن أخذه سبحانه أليم شديد، وأنه لا يُعجزه في هذا الكون شيء، فإذا كان الإنسان لا يقدِّر إحسان ربِّه المحسن إليه، ولا يسلك الطريق الذي أمره به ودلَّه عليه؛ فلْيستعدَّ للبلاء وليذكر ما حلَّ بأصحاب الفيل:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}.

وقد جاءت الصيغة لا للاستفهام، بل للتذكير والتقرير وتثبيت الحادث في الأذهان.

أي: هلاَّ سمعت أيها الإنسان بما سلَّطه مربِّيك على هؤلاء الظالمين، وهلاَّ رأيتَ ما فعله ربُّك بأولئك الذين خرجوا عن الحق وحادوا عن طريق الإنسانية، فجاؤوا لهدم الكعبة ليحوِّلوا الناس إلى كعبتهم التي بنَوْها في اليمن طمعاً في الأرباح الماديَّة التي تعود عليهم من الحج.

وقد أراد تعالى أن يُبيِّن لنا ما فعله بأولئك المعتدين من أصحاب الفيل ليكون ذلك عبرةً لمن يكون ميله إلى الدنيا سبباً في حياده عن الحق، فقال تعالى: **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}.**

والكيد: هو التدبير الذي قام به أصحاب الفيل، وإن شئت فقل تلك الخطة التي رسموها والمؤامرة التي دبَّروها يبتغون من ورائها هدم الكعبة، وإيقاع السوء بأهل مكة، إذ الكيد هو: إرادة السوء بالآخرين، وفعل ما يغيظ.

والتضليل: هو التحويل عن المقصد، والصرف عن الهدف والضياع، مأخوذة من ضلَّلَ. تقول: ضلَّل الرجل الأعداء عن مكان قومه أي حوَّلهم إلى جهة أخرى غير التي يقيم فيها القوم، فإذا هم لا يهتدون إليهم ولا يعرفون مكانهم.

والمراد بالتضليل هنا: إحباط تلك المؤامرة، والقضاء على تلك الخطة المرسومة التي دبَّرها ورسمها أصحاب الفيل، فقد ساق الله تعالى لهم من البلاء، وأنزل بهم من الهلاك ما جعل خطَّتهم تذهب أدراج الرياح، فإذا بتلك المؤامرة التي قُضي عليها بالقضاء عليهم وقد اندثرت، وإذا بتلك الخطة التي انمحت آثارها بهلاكهم وقد تشتَّتت وزالت، وإذا بكيدهم الذي زال لمَّا زالوا من الوجود وقد أُبيد، ولم يبقَ له من أثر في أنفس قريش، كلُّ ذلك يبيِّن لنا طرفاً من قوله تعالى: **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}.**

وقد خاطب الله تعالى بها رسوله الكريم تقول: ألم ترَ أني لا أهمل الظالم، بل أمهله فإذا ما بلغ الأجل أنزلت به من الهلاك ما يجعله عبرةً للآخرين؟.

ألم ترَ أني لست بغافل عمَّا يعمل الظالمون، فلا يطمع معارضوك بحلمي عليهم، وليحذروا الاستمرار فيما هم فيه فإن أخذي أليم شديد.

ألم ترَ أني أنا المتصرِّف في هذا الكون، وإني لكلِّ شيء حسيب، وعلى كل شيء رقيب.

لتطمئنَّ أيها الرسول بالاً ولتعلم أني ناصرك ومُؤيِّدك والعاقبة للمتَّقين.

وهكذا فلا تخشَ أيها المؤمن الخصم مهما كان قوياً، ولا تحسب له حساباً مهما كان ذا دهاء وكيد وتدبير، فتدبير الله تعالى لك فوق كل تدبير.. اتقِ الله حيثما كنت، وحاول أن تكون مُطيعاً لأمر الله، فإن لم تكن معتدياً ولا ظالماً فاعلم أن الله تعالى معك دوماً، وأنه ناصرك وآخذ بيدك، وذلك أيضاً مما توحي لنا به آية: **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}.**

وقد أراد الله تعالى أن يُبيِّن لنا الكيفية التي جعل فيها كيد أصحاب الفيل يذهب في تضليل، وأن يُعرِّفنا بذلك البلاء الذي ساقه إليهم فذهبوا مثلاً في العالمين، فقال تعالى: **{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}.**

والطير الأبابيل: الطائفة البسيطة، نوع من الطير يتَّصف بالضعف يجتمع فرقاً، وهي تعني الكثرة، يُقال: إبل أوابل، أي كثيرة، أبلت الإبل، أي: كثُرت، ومنه الإبالة أي الحزمةُ من الحطب أو الحشيش. وهذه الكلمة هنا ترمز إلى الضعف، لأنه لا يجتمع من الطيور فرقاً إلاَّ ضعيفها، أما الطيور الكاسرة الجارحة فلا تتكتَّل ولا تطير مجتمعة، وذلك تعريف بأن الله تعالى قد يُهلك الخصم القوي بأبسط الأشياء، وأضعف المخلوقات، وليست الأمور في هذا الكون بمتوقفة على ضعف وقوة، فالقوي كما ذكرنا من قبل هو الله وحده، فإذا شاء وأراد واقتضى الأمر، خلق من

الضعف قوة، وجعل من القوي ضعيفاً، وأهلك الخصم مهما كان جبَّاراً عنيداً.

وقد بيَّن تعالى أنَّ هلاك أصحاب الفيل مع عظيم شأنهم وكبير قوَّتهم كان بأبسط الأشياء، وبأضعف المخلوقات. فالطير الأبابيل، أي: ذلك المخلوق الضعيف الذي لا طاقة له بمقاومة عدوٍّ، ولا يقوى على القيام بعمل عظيم، أرسله ربُّك، وكان سبباً في هلاك المعتدين الظالمين. ثم بيَّن تعالى عدله في خلقه، وأن كلَّ ظالم عمله مسجَّلٌ عليه، فإذا حان الحين، عاد على كل امرئٍ ما قدَّم، ونزل به ما هو مسجَّل ومدوَّن.

والسجّيل: مأخوذة من سجَّل بمعنى أثبت الشيء، ومنه السجل.

والسجِّيل: هو العمل المسجَّل المكتوب وهو الكتاب الذي فيه أعمال المرء، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فإذا ما حلَّ الأجل، وحان هلاك الظالم، أرسل الله تعالى له بلاء مُتطابقاً مع ما هو مسطر عليه في سجّيله.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الهلاك لا يُصيب الظالمين جُزافاً، بل يُصيب كل امرئ بقدر عمله، وبقدر ما هو مُسجَّل عليه. فالحجارة أصابت أولئك بما قدَّموه، ومما هو مُسجَّل عليهم.

فقد يقع انفجار في أرض، أو زلزال في منطقة فإذا بهذا يزول من الوجود، وبذا تتقطَّع بعض أعضائه، وبآخر يمرض رعباً، وبغيره تنحل قواه خوفاً، وإذا بآخرين وقد بثَّ الله تعالى في قلوبهم الطمأنينة لا يخشون شيئاً، ولا يفزعون من شيء، فكأن لم تقع واقعة وكأن لم يحدث شيء، وكلُّ امرئ بما كسب رهين.

وأخيراً وصف لنا تعالى حال أصحاب الفيل عند حلول العذاب وقد دمَّرهم الهلاك النازل بهم تدميراً، فقال تعالى: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}.**

والعصف: هو الهشيم أو التبن من ساق القمح أو الشعير، يضحي قطعاً صغيرة خفيفة الجرم فتذهب به الريح حيث تشاء، تعصف بها فلا مُقاومة لها، ولا ثبات أمام الريح.

والعصف المأكول: هو التبن الذي أكلته الدواب وأخرجته روثاً فإذا به وقد فسدت رائحته، واشمأز الناس منه لا يعبأ به أحد ولا يلتفت إليه.

فهؤلاء لمَّا رأَوُا الهلاك، أصبحوا بين يديه كالعصف الذي تريد أن تأكله الدواب، فهو لا يقوى على الخلاص منها، ولا بدَّ له من الدخول في فكَّيها، والنزول تحت رحى أضراسها.

وكذلك أصبح القوم من بعد هلاكهم، فقد أضحوا جيفاً مُلقاة في فلاة، فلا شأن لهم ولا اعتبار، وإذا بهم قد غدوا عبرة ومثلاً للعالمين، هذا كان مصير هؤلاء، وكذلك حال كل ظالم لنفسه، خارج عن طاعة ربِّه.

وأخيراً نجمع القول فنقول: في هذه السورة الكريمة من الإشارات، وفيها من التحذير من الاستمرار في الطغيان، وفيها من تثبيت المؤمنين والتصبير على معارضات المعارضين، وفيها من البيان بأن الله تعالى هو المسيِّر وهو المتصرِّف وحده في هذا الكون، ما يجعلنا نُدرك ما في القرآن من حكمة وما فيه من عبرة وموعظة، وما فيه من عناية إلهية ورحمة.

قال تعالى: **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}** (٤) .

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً} (٥)

والحمد لله الذي يخلق من القوي ضعيفاً، ولا قوة إلاَّ به.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠)

(2) سورة البقرة: الآية (١٤١)

(3) سورة المائدة: الآية (٩٧).

(4) سورة الإسراء: الآية (٩)

(5) سورة الإسراء: الآية (٨٢).

تأويل سورة الفيل

بيان يتلوه بيان ، ونصح وإرشاد يتلوه تحذير ووعيد .. هذا لمن ابتعد وعن الحق حاد ، و بشارة وترغيب يتلوه تحبيب و تمجيد ، وهذا لمن سلك طريق الهداية الذي سننته الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه لأقوامها على مر العصور والأجيال ...

هذا البيان الذي أجراه الله على قلب السيد محمد أمين شيخو (قدس الله سره) بالنور بمعية وشفاعة سيد الرسل الكرام سيدنا محمد ﷺ ، وقد أفاض علينا بهذه المعاني العالية بدروسه أيام الجُمع مكللة بالنور والسعادة والحبور، تحمل الحقيقة من الله تعالى في طياتها ، ألقاها على مسامع مريديه ، ينقلون هذا العلم الذي آتاه الله إياه ولا يكتمونه عملاً بقول رسول الله ﷺ وإرشاده .



السعر : ١٠ ل.س